

أ.د/ محمد أحمد محمد أحمد بدبوى •

تمهيد

عروبة " حدود المصطلح "

للتعريف بالتسمية " عروبة " يستوجب استدعاؤها حسب المعنى اللغوى عبر أيام الجاهلية قبيل الإسلام ، فقد أفادنا المعجم الوسيط ^(١) بأن معناها يشير إلى يوم الجمعة في الجاهلية ؛ للدلالة على اجتماع العرب في يوم الجمعة قبيل الإسلام وعند ظهوره ، وأفادنا " ابن منظور " في لسان العرب بان كلمة عروبة والعروبة ، كلتاهمما الجمعة وأنهما من الأسماء القديمة بناء على ما ورد في الصحاح ^(٢) ، والمتواتر في حديث " الجمعة " أنها كانت تسمى عروبة كاسم قديم لها ، ويقال يوم عروبة ، ويوم العروبة ؛ والأفضل أن لا يدخلها الألف واللام ^(٣) .

وفي إشارات أخرى ؛ لم تظهر هذه التسمية " العروبة " إلا منذ أن ظهر الإسلام، حيث كانت قريش تجتمع في هذا اليوم ، فيخاطبهم كعب ابن لؤي عم الرسول يذكرهم بمبعثه " صلى الله عليه وسلم " ، ويأمرهم باتباعه والإيمان به ^(٤) .

ويشير دوزي " رينهارد " في تكميلة المعاجم العربية ؛ بأن فعل عرب بالتشديد ؛ والجمع عربان أي جعل منه عربيا صحيحا ^(٥) .
وأفادنا صبحى غندر ^(٦) بأن العروبة تشير إلى عربى اللسان ، الذي يجمع بين هذا اللسان كصاحب ثقافة عربية وبين المضون الحضاري ^(٧) لها فى إشارة إلى أن العروبة لا تلغى ولا تتناقض مع الروابط العائلية أو القبلية أو الوطنية بل هى تحدوها فى إطار علاقة الجزء مع الكل ، أي في ضوء

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية الآداب جامعة أسيوط .

١ - معجم اللغة العربية ؛ ط الرابعة ، مكتبة الشروق الدولية سنة ٢٠٠٤ م ؛ صفحة ٥٩١ .

٢ - ابن منظور (أبي الفضل جمال الدين ت ٧٧١ هـ - ١٣٦١ م) لسان العرب ، جزء ٣٢ دار المعارف القاهرة ، صفحة ٢٨٧٨ .

٣ - ابن منظور : المصدر السابق ، ج ٣٢ صفحة ٢٨٦٨ .

٤ - ابن منظور : المصدر السابق ، ج ٣٢ صفحة ٢٨٦٨ .

٥ - دوزي (رينهارد) : تكميلة المعاجم العربية ، ترجمة أحمد سليم ؛ بغداد ١٩٩٢ ؛ صفحة ١٦٧ .

٦ - كان مديرًا لمركز الحوار العربي في واشنطن .

٧ - صبحى غندر : وجهة نظر حول معنى العروبة ؛ مجلة الشركاء ؛ نوفمبر ٢٠٠٥ م ، وضمن ما ورد في كتابه بعنوان " الفكر والأسلوب في مسألة العروبة ، ط أولى ، منشورات مركز الحوار العربي ؛ واشنطن ، يناير ٢٠١١ م ، صفحات ٧٧ - ٨٥ .

ارتباط الإنسان بوصفه صاحب لسان عربى وكونه صاحب حضارة تحمل الشخصية العربية الإسلامية مهما تأثرت بتكوينات وآفدة عليها.

ويسوقنا كلام صبحى غندر إلى المعنى الاصطلاحي للفظ "عروبة"؛ حيث ورد فى المعاجم العربية بما يفيد أن هذه اللفظة تشير إلى توفر خصائص الجنس العربى ومزاياه فى الإنسان^(٨) لتكريس فكرة العروبة الأصلية التى تنطلق لستقبل ما يأتى عليها من روافد ومؤثرات خارجية لتصنع حضارة اندماجية لها شخصيتها الجديدة برواسخ ودعائم عربية.

ولا مندوحة من أن نبدي تأكيدنا على أن العروبة اصطلاحياً تعد إضافة جديدة مميزة أوجدها الإسلام على السمة العربية كلغة نتيجة ارتباط الإسلام بالوعاء الثقافى العربى عبر القرون بكل ما يحمله هذا الوعاء من نتائج أفرزها الاندماج الحضارى في داخل البيئات غير العربية ، وفي هذا الإطار لا نرى أى غضاضة من الأخذ بقول أحد الباحثين الذى ينتهى إلى أن العروبة هى التي أخرجت الثقافة العربية من دائرة العنصر الف资料ي - العرقى ومن حدود الجغرافيا الضيقة إلى دوائر جغرافية أخرى متباينة تتسع في تعريفها للعربى ؛ لتشمل كل من يندرج في الثقافة العربية بغض النظر عن أصوله العرقية^(٩).

وتتكامل بطبيعة الحال الشخصية العروبية في بناء الحضارة اذا ما توجت ممثيلها باللسان العربى في أوطنها أو بيئتها الجديدة مما اختلفت أجنسهم ؛ بمعنى أن الإنسان صاحب الأعراق العربية الحقيقية يعد ممثلاً للعروبة في الأنحاء التي وفد إليها بداعي إسلامه اذا ما نجح في تعريب لسان الأصلين المقيمين في البلدان المفتوحة منذ فجر الإسلام وحافظ على أصوله بين ظهرانيهم إلى حد جعل هذه الأصول نبتة جديدة لدى هؤلاء الأصلين ؛ ودعامة مؤثرة في نسيج بنائه بحيث تكون العوامل الوافدة المصاحبة للعنصر العربى مساهمة في تشكيل وتوليد عنصر من المولدين الذين يجمعون في خصائصهم بين الدماء العربية الوافدة ودماء الأصلين .

وغاية ما نقصده مما أسلفناه ؛ انه ليس كل إنسان عربى يعد عروبيا طالما أنه لا يجمع بين لغة الثقافة العربية وبين المضمون الحضارى^(١٠) لها ؛ وفي حدود مصطلح عروبة بكل دلالاته لم تتحقق هذه المعانى في مصر إلا في

^٨- المعجم الوسيط ؛ نفسه ، صفحة ٥١٩ ، وانظر معجم اللغة العربية المعاصر ، والمعجم الرائد .

^٩- صبحى غندر : نفسه ؛ صفحات ٧٧ - ٨٥ أنظر .

^{١٠}- صبحى غندر ، راجع المرجع السابق والصفحات .

ظل الإسلام وبعد مرور فترة زمنية طويلة الأجل تكون كافية لخلق حالة من الاندماج الحضاري بين العرب والمصريين في فجر الإسلام؛ وظهور هذه الحالة الاندماجية تأتي معبرة عن مولدعروبة في مصر ، الذي سوف نعالجه بالدراسة في الصفحات التاليات .

العروبة والعربية في مصر قبل الإسلام

تؤكد الجغرافيا سهولة الاتصال بين العرب والمصريين في القديم ، فقد ساعد البحر الأحمر على اتصال الشواطئ الآسيوية العربية بالشواطئ الأفريقية ، واتخذ العرب التجارة كوسيلة لهذا الاتصال ؛ وحمل التجار المعينيون والسبئيون لواء التجارة في البحر الأحمر ١٥٠٠ ق.م - ٣٠٠ م في عهد دولتي معين وسبأ ؛ ونشطت حركة التجار العرب زمن البطالمة والرومان مما ساهم في استقرار بعضهم في أجزاء مختلفة من حوض النيل، وتشير بعض الروايات التاريخية إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون في النوبة وأرض البجة وشمال إفريقيا ؛ ومما قبل أن هؤلاء الحميريين إختلطوا بسكان شرق السودان وورثوا ملك أجدادهم من ناحية الأم^(١) وفي القرن السادس الميلادي إختلط الحضارمة الذين انقعوا بهذا النظام الوراثي بالبجة وكونوا طبقة حاكمة خضعت لها سكان البجة وتعلموا لغتهم واعتنقوا المسيحية^(٢) .

أما عرب الشمال فقد اتخذوا طريق برزخ السويس وسيلة للاختلاط بسكان وادي النيل الأدنى منذ فجر التاريخ ، والحديث عن بدو سيناء وفلسطين وسوريا من العرب الشماليين ليس بعيد عن الباحثين ، وهم الذين عرفتهم مصر منذ عهد الأسرات الأولى إما تجارا أو غزاة أو لاجئين ؛ وكانوا أن ساهموا في طبع اللغة المصرية القديمة بالطابع السامي ، ولم تقطع صلة هذه العناصر العربية بمصر زمن البطالمة والرومان^(٣) ؛ إلى حد جعلها تستمر في استهداف مصر بفعل هذه الأسباب الثلاثة حتى ظهر الإسلام ليزيد من هذا الاستهداف شدة وتأثيرا لتجاوز آثارها في القديم بظهور دماء غزيرة من الفاتحين تسهم في نشر اللغة العربية ، وأخذت هذه الصلة تمارس فعالياتها خلال فترة زمنية طويلة الأجل حتى صبغت مصر بالثقافة العربية ؛ بما انطوت عليه من مضمون حضاري جمع العنصرين العربي والمصري في دائرة العروبة .

١- مصطفى مسعد : " الإسلام والتوبه في العصور الوسطى " ، الانجلو المصرية ١٩٦٠ ، صفحة ١٠٦ - ١٠٨ .

٢- مصطفى مسعد ، نفسه ، ص ١٠٨ .

٣- نفسه ، صفحة ١٠٩ .

ومما ساعد على انتشار اللسان العربي السامي ، باللسان الحامى المصرى ذلك الاتصال بين الأعراق العربية والمصرية بتأثير الدوافع الجغرافية التى ربطت بين الشواطئ الآسيوية والأفريقية ، ويتجلى ذلك الاتصال فى دراسة رصينة قام بها أستاذنا عبد العزيز صالح حول " مصر القديمة بين جيرانها فى الجنس واللغة " ، فقد أوقفنا على أن الأجداد المצריين ظلوا منذ أواخر دهرهم الحجرى القديم الأعلى أى منذ ما يقرب من عشرة آلاف عام من سلالات البحر المتوسط الجنوبية مع اختلافات محلية بين سكان أطراف الصعيد وأطراف الدلتا وبين سكان حواف الصحراء الشرقية وسكان حواف الصحراء الغربية مشيرا إلى أنه على الرغم من أن المصريين احتفظوا لغتهم بمبادئ نحو وصرف ميزة بينها وبين غيرها من لغات العالم القديم، لكنهم ضمنوها في الوقت ذاته قواعد أخرى ، ومفردات تكشف عن استمرار صلاتهم بجيرانهم الأدnenin أصحاب المجموعة السامية في الشمال الشرقي وأصحاب المجموعة الحامية في الغرب وفي الجنوب والجنوب الشرقي^(٤) .

وكانت الصلات اللغوية بين المجموعتين موضع أبحاث مسيبة منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، وأكى بعض الباحثين غلبة العنصر السامي من علماء الآثار والتاريخ ، بينما تقصى بعض اللغويين الطابع الحامى فيما ، وربط فريق ثالث بين المجموعتين السامية والحامية في سياق واحد على اعتبار أنهما من أصل مشترك قديم؛ ولا يوجد فارق أصيل بينهما أو أنهما بندرجان من الأسرة السامية الحامية ، وهذا الفريق الأخير قسم هذه الأخيرة إلى أربعة أقسام أو خمسة هي " السامية " ، والبربرية والковشية والمصرية القديمة والهوسوية ؛ ولم يتأت هذا التقارب - بطبيعة الحال - نتيجة عامل واحد ؛ بل ساهم في حدوثه عدة عوامل متداخلة منها وحدة الجنس البعيدة بين مصر وجيروانها ، والاختلاط الجنسي المقطع بينهما ، والاتصال الثقافى والتشابك اللغوى ، وفي ضوء تعدد وسائل هذا التقارب بين مصر وجيروانها يتضح أن الصبغة السامية ظلت أكثر وضوحا في المفردات المصرية القديمة خلال ثلاث مراحل أساسية طويلة ؛ أولها مرحلة التكوين الثقافى خلال ألف الرابع قبل الميلاد ، وثانيها خلال ألف الثالث قبل الميلاد ، وفيها استقبلت مصر جماعات من الرعاة والتجار والمهاجرين وعمال المناجم (الساميين) ، واتسعت صلاتها ببلاد الشام ،

^٤ - عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وأثارها ؛ الجزء الأول ؛ الانجلو المصرية ، إصدار ثالث ١٩٩٢ ، صفحة ١٢ ، ١٣ .

وثلاثها منذ القرن ١٨ ق.م وفيها اندفعت إلى مصر جماعات سامية عدّة تحت ضغط هجرات آرية شمالية ، وفضلاً على ما تضمنته نصوص هذه المراحل ، شاعت في العبارات المصرية الدارجة مفردات سامية كثيرة يصعب تحديد أزمنتها ؛ وتجاهلتها المتون الأدبية الرسمية عصوراً طويلة حتى سجلتها الكتابة القبطية منذ القرون الميلادية الأولى^(١٥).

ومما لا شك فيه أن العربية كانت إحدى اللغات السامية التي احتفظت بتأثير قوى في اللغة المصرية القديمة بتأثير هذه المراحل عبر آلاف السنين ، لنرى تأثير ذلك مسجلاً في الكتابات القبطية ، ويظهر ذلك بجلاء في تأكيد الدكتور / علي رضوان الذي أشار إلى أن ما يزيد عن ٦٠% (ستين في المائة) من مفردات اللغة العربية تبدو آثارها واضحة في الكتابات المصرية القديمة^(١٦).

والحديث عن تاريخ العرب والعرب من قديم الأزل يؤكد أن العربية متصلة في التاريخ المصري القديم ؛ وتصلى بعض الباحثين لهذه القضية ، وتوصلوا إلى أن هذه اللغة قديمة قدم التاريخ المصري ، فيذكر محمد بهجت القبسي أن لفظ "كعبة مكان" يشير إلى عرب مكة الذين جاءوا إلى مصر ، وظهروا في النصوص المسماوية قبل بناء الأهرامات في مصر بمائة عام (٢٣٤٠ ق.م) ، ولا يمانع في الأخذ برأي محمود خطاب أول من ذهب إلى أن الهكسوس أقوام من العرب دخلوا مصر ، وليسوا خليطاً من أجناس شرقية^(١٧) ، ولكن الأهم من ذلك كله ينبغي أن يصب في أسباب هذا التوافد العربي على مصر وأثاره الحضارية .

والحديث عن أسباب الهجرات السامية إلى مصر في القديم يجعلنا نبحث عما إذا كانت هذه الهجرات بقصد الاستقرار أم التجارة أم الغزو لما ذلك من صلة أكيدة بمعنىعروبة ، وفي إشارة إلى النقوش المصرية القديمة بإحدى صور مقابر بنى حسن ظهر على الحائط الشمالي بها "خنوم حتب الثاني" أمير الأسرة الثانية عشر في عهد الملك سنوسرت الثاني

١٥- عبد العزيز صالح : نفسه ، صفحة ١٣ - ١٦ .

٦- أكد لنا ذلك في تعقيباته على الطرح الذي تقدمت به في فعاليات الحلقة النقاشية ضمن حلقات المؤتمر العلمي الدولي السادس عشر الذي نظمته اتحاد الاثاريين العرب بمدينة شرم الشيخ المصرية في نوفمبر ٢٠١٣، أما لفظة "كعبة مكان" فتنطق في العربية كما وردت هكذا حرفيًا على لسان محمد بهجت القبسي خلال فعاليات هذه الحلقة ذاتها .

١٧- محمد بهجت القبسي : الأكراد والبني ، دراسة في تاريخهم وجغرافيتهم ، انظر إشاراته حول الجماعات الشرقية الآسيوية التي قصدت مصر في تاريخها القديم .

يستقبل مجموعة يتقدمهم حكاو خاسوت^(١٨) ومعه وفد مكون من ستة وثلاثين شخصا ، وهذه مجموعة كنعانية جاءت - فى رأى الدكتور محمد بهجت قبيسى - الي هذه المنطقة بأواسط صعيد مصر للاستقرار - وليس للزيارة؛ ويفيدة في هذا السبيل الدكتور - صدقة موسى معبرا عن أن هذه الجماعات جاءت مختلفة في الجنس واللون والملابس ومختلفة للجنس المصري ومصطلحة معها الأطفال والنساء وتحمل الكحل بما يشير إلى أنها جاءت لاستوطن دون تأثير في المجتمع المصري أو لتجارة^(١٩) .

وعلى الرغم من أن ظهور مثل هذه الجماعات الكنعانية الأرامية في النقوش المصرية القديمة يبرهن على التأثير السامي في حضارة مصر القديمة والاتصال بين المجموعتين السامية والحمامية ؛ وبما لا يلغى - إطلاقا - مشاركات عربية ضمن هذا التوافد السامى ؛ إلا أن المقاصد التجارية التي جاءوا إلى مصر من أجلها أو قيامهم بالعمل في المعابد كخدم أو عبيد واماء أتذاك لا يقر - إطلاقا - بوجود معنى العروبة ؛ لأن العرب في هذه الاشارات أشبه بشوارد مشاركة بأعداد قليلة جدا ضمن جماعات آسيوية وافدة قصدت أماكن محددة ؛ وليس لها نصيب في الاستقرار المؤثر في الحياة المصرية ، الأمر الذي يجعلنا نأخذ بأن العرب والعربية معروفة في التاريخ المصري القديم ، ولكنها ليست من مكوناته في مضمونة الحضاري أو مشاركة في أصوله باستثناء الجانب اللغوى الذى فرض نفسه لأسباب جغرافية فضلا عن التشابك اللغوى بطريق التجارة أو شيوخ لهجات المهاجرين إلى مصر .

وصفة القول فإن العروبة بمعناها الواسع ليست لها ظهور في مصر قبل مجىء الإسلام بإستثناء الجانب اللغوى من مكوناتها والذى تشابك مع الأصول اللغوية في التاريخ المصري القديم دون أن يكون له مردود في مضمونه الحضاري الشامل بكل أبعاده الاقتصادية والاجتماعية وتنوعه الثقافى والفنى .

إرهادات ظهور العروبة في مصر في القرنين الهجريين الأول والثاني
كان طبيعيا أن ترتبط حياة العرب في مصر بعد الفتح بالظروف الموضوعية التي أحاطت بمنشأهم الأول ، فطبعوا أيامهم وبواكيير حياتهم في مدينة الفسطاط بدینهم الجديد الذي بادروا بإعتناقها بتشجيع من هذه البيئة التي

١٨ - لفظ يشير إلى حاكم البلاد الأجنبية .

١٩ - صدقة موسى : استقرار بعض الآسيويين والليبيين في مصر في عهد الدولة الوسطى ضمن أبحاث نشرها اتحاد الآثاريين العرب .

هيأت لهم فكرة الامتناهى الدائم وتقبل الوحي من إله واحد لا تحدده حدود ؛ ومن ثم أقاموا بنيانهم في هذه المدينة على أساس من الأخلاق ليصير الدين وقواعد الأخلاق أساساً للبناء الحضاري ، وفي تلك الحالة يكون العرب قد أسسوا ملكاً في مصر يعد نموذجاً لولاية عربية في دولة عامة الاستيلاء عظيمة الملك أصلها الدين^(٢٠).

إنصبت الحياة العربية في مصر زمن الفتح العربي بفعل تأثير ما كان سائداً في البيئة الحجازية على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ، وبما ينطوي على مؤشرات حضارية تشربها العرب في مجتمع المدينة دعتهم إلى الوحدة والتعاون^(٢١) تعبيراً عن فكرة الأمة ، وبذل الجهاد لنشر الإسلام في غير بلاده كضرورة ملحة للسياسة العربية الإسلامية بعد وفاة النبي " صلى الله عليه وسلم ".

أصبحت حياة العرب في مصر غادة عمليات الفتح محكمة بالضرورات في المعيشة والهدف السياسي ، فلا شأن لهم سوى الجهاد والدعوة إليه بقصد نشر عقidiتهم الجديدة فيما تبقى من بلدان لا يتم فتحها إلا في ضوء ذلك ؛ ولا حياة لهم إلا على الضروري من الأقوات ؛ دونما اختلاط بالأصليين المصريين ؛ أو اندماج معهم خلال هذه المرحلة المبكرة من حياتهم ، لذا شهدت هذه الأخيرة في الفسطاط إنعزلاً كاماً للجند العربي داخل الفسطاط التي باتت آنذاك معسكراً لهم لا مدينة عامرة حالت أحوالها دون استطابة العرب حياتهم المدنية .

انطوت حياة العرب في مصر على البساطة دون اللجوء إلى الترف ورغم العيش ، فلا ينشغلون بالحصول على الغنائم بما يحول دون سعيهم إلى نشر الجهاد ، وأخذت الحياة العربية هذه في القرن الأول الهجري أشكالاً بنيت على هذه الضرورات ؛ وكان لذلك كلّه آثاره الإيجابية عند الأصليين الذين رحبوا بالعرب لما وجدوه من خلاص بفضل هذه السياسة من نير الحكم البيزنطي الغاشم^(٢٢).

-٢- راجع ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) : المقدمة ، بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، صفحة ١٣٢ ، وانظر ايضاً - ابن الأزرق (ت ٨٩٦ هـ) : بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق سامي النشار ، بغداد ١٩٧٧ ، الجزء الأول صفحة ٢ ، ٣ ، ٤ ، ١٠٥ .

-٣- ابن هشام (ابو محمد عبد الملك الجعافري الحميري البصري) : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، راجع أصولها محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة حجازى ، ج ٢ صفة ١٢٣ ، ١٢٤ .

-٤- ساويروس بن المقفع (ت اواخر ق ٤ هـ) : سير الآباء البطاركة ، القاهرة ١٩٤٢ ، المجلد الأول ، صفحة ٥٤ ، ١٠٧ .

كان طبيعياً أن يستطيب العرب حياتهم المدنية في مدينة الفسطاط بما يتوافق مع طبيعة هذه المرحلة المبكرة ؛ فأقاموا الخطط بما يكفل الوحدة بين أبناء القبائل ؛ وبما ينطوى على أسس الدين وقواعد الأخلاق تفرغاً للجنديه^(٢٣).

روعى في تصميم الدور في بواكير الحياة العربية بمدينة الفسطاط الميل إلى البساطة، والحفاظ على الحرمات ومراعاة تعاليم الإسلام ، وأشار علماء الآثار بأن منازلهم في تلك المرحلة كانت تشمل على طابع ، واحد وظلت فترة زمنية طويلة تستمد الضوء والهواء من أفنية تتوسط هذه الدور^(٢٤) وتعد دار عمرو بن العاص بجوار مسجد الفسطاط ؛ والمعبر عنها بالدار الصغرى عند ابن دفمق^(٢٥) انموذجاً للدور المبكرة في بنايات الفسطاط آنذاك .

وكانت الدور في الفسطاط تأخذ شكل بيوت منتشرة داخل الخطط ، حيث شيدت في تلك المرحلة بالطوب الأدكن والبوص والنخيل ؛ بما يتاسب مع حياة العرب آنذاك ؛ وهي عمارة مبكرة ليس لها آثار باقية في أيامنا المعاصرة ، أو واضحة يمكن الكشف عنها في المستقبل^(٢٦) .

استطاب العرب حياتهم في الفسطاط بما يكفل لهم نشر الجهاد الذي أقرته سياسة الحكومة العربية ؛ مدعوماً بتقرير العطاء والأرزاق اللازم^(٢٧) .

كان طبيعياً أن تأخذ حياة العرب بعد الفتح شكلاً يتسم بالانزعالية عن أهالي البلاد الأصليين ، حيث إنغلقوا على أنفسهم دونما احتلال أو اندماج بأقباط مصر بما لا يتعارض والسياسة العربية لدولة الخلافة ؛ وبصورة

٢٣ - راجع مقالنا بعنوان "مظاهر الحياة الاجتماعية بالفسطاط في ولاية عمرو بن العاص الأول ، مجلة التاريخ والمستقبل ، يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة المنيا ، المجلد الثاني ، العدد الأول ١٩٩٢ صفحة ٧٩ .

٤ - فريد شافعى : العمارة العربية في مصر الإسلامية ؛ المجلد الأول ؛ القاهرة ١٩٧٠ ، صفحة ٣٥٤ .

٥ - "الانتصار بواسطه عقد الأمصار" ، بولاق ، سنه ١٣٠٩ هـ ، الجزء الرابع ، صفحة ٦٧ .

٦ - حول هذه الدور راجع مقالنا حول "مظاهر الحياة الاجتماعية في الفسطاط" مرجع سابق ، صفحة ٨٠ .

٧ - راجع الطبرى (ت ٣١٠ هـ) تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ، الجزء الثالث ١٩٣٩ م ، صفحة ٢٧٧ - ٢٧٨ .

سميناها في بحثنا السابق بـ "الانعزال الاجتماعي للجند" وتدور هذه السياسة حول محور واحد هو نشر الإسلام في غير بلاد الإسلام^(٢٨). على أن انعزال العرب وانغلاقهم داخل الفسطاط لم يكن بصورة مطلقة ، إذ سرعان ما خرجنوا من خططهم في مواسم الربيع إلى أرياف مصر وقرابها المجاورة لفسطاطهم يجرون اتصالهم بالقبط ، وبتبادلونهم المنافع ؛ يعطونهم ، ويأخذون منهم ، وهكذا اختلط اللسان العربي بالقبطي ؛ في إهلاصة مبكرة تحمل معانى جديدة من أجل إظهار بوادر علامات العروبة في مصر ، وهي علامات جديدة اقترنت بها الفترة المبكرة من حياة العرب في مصر إبان مرحلة الفتح ، وبعدها وطيلة القرن الأول الهجرى ، والمعبر عنها في كتابات "ابن عبد الحكم" "بمرتبع الجند"^(٢٩) ، حيث كان الجنود العرب يطلقون خيولهم حتى تسمن في مزارع القبط ؛ ويعرفون على عادات وتقالييد المصريين بما يمثل أقدم أشكال الاتصال بين العرب والمصريين^(٣٠) على أن فترات الربيع لا تعكس ديمومة الاتصال بين العنصرين العربي والقبطي، ولا تنهض دليلاً على استقرار عربي في أرياف القبط وقرابهم ؛ مما جعل التأثير من ورائهم وقتى سرعان ما يزول بعودة العرب إلى فسطاطهم.

واقترت بوادر الحياة العربية في المرتبتين خلال القرن الأول الهجرى بعدة أسباب أعادت الفاتحين على تذوق الحياة المدنية ؛ من ذلك أن هؤلاء الفاتحين كانوا ينزلون في ضيافة الأقباط أيامًا بمقتضى الشروط التي سنها عمرو بن العاص حينما وضع أساساً للجندية في مصر (فمن نزل عليه جندى أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام)^(٣١) ، لكن وقت هذه الضيافة لا تعطى للعربي قدرًا من الاندماج بقدر ما أصابته من عناء ، في وقت لا تخلو فيه هذه المناشط من فائدة تعود على العربي والقبطي في إظهار علامات التبادل الثقافى والاجتماعى بينهما.

ومن ذلك أن الحياة الإنعزالية للعرب في داخل الفسطاط شهدت محاولات من الحكام في مصر على تشجيع القبط لتعلم اللغة العربية ، ففي عهد الخليفة

٢٨- مظاهر الحياة الاجتماعية في الفسطاط في ولاية عمرو بن العاص الأولى ، مرجع سابق ، صفحة ٨٣ ، ومن المؤكد أن هذا الانعزال كان لا يعبر عن نزعة استغاثية سلكها العرب تجاه قبط مصر ؛ انظر نفس المقال والصفحة .

٢٩- ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ) : "فتح مصر" ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩١١ ، صفحات ١٩٠ - ١٩٢ .

٣٠- ابن عبد الحكم : المصدر السابق والصفحات .

٣١- المقريزى (نقى الدين أحمد ت ٨٤٥ هـ) : الموضع والاعتبار فى ذكر الخطط والأثار والمعروف باسم "الخطط" ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، الجزء الأول ، صفحات ٢٩٢ ، وحول هذه الضيافة ، انظر مقالنا : نفسه ، ص ٨٧ .

عبد الملك بن مروان وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك سنة ٨٧هـ كان قرار تعريب الدواوين في مصر^(٣)؛ ومن الطبيعي أن الأقباط حرصوا على تعلم اللغة العربية كي يحافظوا على بقائهم في وظائفهم، ولا ننسى أن العربية بدأت إرهاصاتها في تلك البلاد التي عاشت فترات مرتبة الجندي في القرن الأول الهجري بالبلاد المجاورة من الحاضرة بالدلتا والصعيد الأدنى.

على أن حركة التعرّب في مصر خلال القرن الأول الهجري لم تأخذ قدراً واسعاً أو حتى ضيقاً بسبب عدم استقرار العرب بقرى مصر؛ وكل ما في الأمر أنها أسفرت عن محاولات لأفراد من القبط قبلت على العربية بما يعندهم على حياة أفضل أو آخرين من رغبوا في الإسلام، فأقبلوا على لغته

ولم تفلح كل هذه الأسباب في دمج العنصرين العربي والقبطى داخل شريحة واحدة؛ بدليل أن مصر خلال القرن الأول الهجرى انقسمت إلى شريحتين منفصلتين لا رابط بينهما؛ فالعرب - آنذاك - بناءاً على دراسات وضعها عبد الرحيم عمران^(٤) حول ديمغرافية مصر وعدد سكانها بعد قدوم الفاتحين العرب وتوصل بموجبها بأن أعداد سكانها آنذاك تراوح بين اثنين من الملايين إلى خمسة ملايين نسمة مقابل حوالي أربع وعشرين ألفاً من الجنديين العرب الذين استوطنوا الخطط بالفسطاط^(٥)، بعيداً عن مواطن القبط؛ الأمر الذي لا ينهض بتكرير فكرة العروبة - آنذاك - في المجتمع القبطي، ولئن يعبر عن وجود إرهاصات لها ومؤثرات من مؤثراتها؛ فهو من ممهدات ظهورها.

ولا يخفى علينا أن سياسة الانعزال المحكمة بنوياً العرب وصدق أهدافهم من أجل العقيدة الجديدة، بعيداً عن الاستعلاء والاستحواذ على حساب أهالي مصر يكفي لكي يشجع القبط على تعلم العربية؛ وتتوق بتأثيرها أنفسهم إلى الاختلاط بحامليها بعد أن خلصوهم من الاضطهادات المالية والدينية التي نالت منهم ومن أوطانهم، وفي هذا الإطار كانت العلاقات بين القبطي والعربي تتطلع على مودة ولين، ورغبة من المقيم

٢- الكندى (ت ٣٥٠هـ) "الولاة والقضاة"، بيروت ١٩٠٨ م صفحة ٥٨ - المقرizi : "الخطط" ، مصدر سابق ، ج ١ ، صفحة ٩٨ .

٣- قد أخذنا بالنتائج التي توصل إليها عبد الرحيم عمران في دراسته بعنوان : The population of Egypt past and present توصل إليه ، وقارناه بمضمون ما كتبه ابن عبد الحكم ، انظر مقالنا "مظاهر الحضارة في الفسطاط في ولاية عمرو بن العاص الأولى" ، صفحة ٨٥ ، ٨٦ .

٤- ابن عبد الحكم : نفسه ، صفحة ٢١٧ .

فى قبول الوافد العربى ، وحينذاك كان مرتبع الجنادل العرب فى أرياف مصر يحظى بقبول وترحيب أهله المصريين فى وقت نهايته الخليفة عمر بن الخطاب العرب عن الزرع والمزارعة (فلا يزرعون ولا يزارعون) وذلك كله من ممهدات ظهور علامات العروبة فى مصر فى أوقات لاحقة يتثبت فيها المجتمع العربى فى مصر وتسقى قوادره .

وكان من المقبول لدى قبط مصر أن يتهيئوا للتعايش مع الفاتحين إذا ما دعت الضرورة لذلك فى مرحلة لاحقة ، فالمنطق ؛ وأحكام الواقع لا يقر باستمرارية انعزال العرب فى مدينة ناشئة لا تسع لهذه العناصر الوافدة التى أخذت تتزايد بين حين وآخر على البلاد المصرية فى وقت ثبتت فيه نواباها الحسنة ، وخلصتهم من استبداد البيزنطيين ؛ وحمت أديرتهم وكنائسهم ، ووفرت لهم حرية العقيدة وسلكت تجاههم سياسة عادلة إدارية ومالية دون السعي وراء طلب الجباية ^(٣٥) .

على أن إبقاء العرب على أنظمة القبط ، وصنائعهم بعد الفتح قد سمحت للمصريين القيام بهذه الأنظمة وتلقي الصنائع دون أن يشاركونهم في إعمار المدن المصرية ،

(فصار الأقباط هم صناع السفن والنسيج والغذاء والزراعات ؛ وادارة الوظائف في مجال الإدارة والمال حتى تيسر الأمر إلى الاعتماد عليهم في جياعة الجزيرة وشغل وظائفها في ظل حياة الجنديه التي تفرغ لها العرب دون استطابة مدنية ؛ مما جعل فكرة العروبة غير مرئية أو ملموسة .

أخذ العرب - تدريجيا - في الاتصال بالمصريين ، والاختلاط بهم في دعوة إلى الاستقرار بأرياف مصر ؛ ذلك أن مواكبة الحياة العربية في مصر لأحداث الخلافة في الحاضرة دمشق منذ أوائل القرن الثاني الهجري دفعت بتزايد أعداد العرب المهاجرين تنفيذا لسياسة غربية رأت أن تحدث توازناً بين أعداد عرب الشمال وعرب الجنوب الذين كثروا وازدادوا مما عجل بدعوة بنى أمية إلى استقدام أسرات عربية شمالية للاستيطان بقرى ومزارع مصر بداعي العصبية ؛ والتكمين لعرب الشمال على حساب اقراهم الجنوبيين ؛ ولتنفيذ ذلك استحضر عبيد الله بن الحباب عامل الخارج في

^{٣٥} من الثابت أن العرب حافظوا على التنظيمات المالية والإدارية التي وجدوها في مصر ؛ فأبقوها عليها وعلى موظفيها ، واتخذوا من السياسات الضرائية بما ينطوي على توخي استقرارهم وراحتهم والحلولة دون إيذائهم واضطهادهم في أنفسهم وأموالهم إلى حد جعل بعض خلفاء بنى أمية يعاقبون عمال الخراج الذين اشتطوا في فرض سياسات ضرائية ظالمة على النحو الذي حدث في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز.(انظر المcriizi : الخطط ج ١ ، صفحة ٧٧-٧٨ .) .

مصر في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) نحو من ثلاثة آلاف أسرة من قبيلة قيس إلى مصر سنة ١٠٩ هـ؛ حيث أنزلاهم في أرياف بلبيس بجوار مواطن القبط^(٣٦).

أخذت القبائل القحطانية أمام التوافد القيسي في النزوح إلى أرياف مصر وقرابها^(٣٧)؛ فنزلت ضمن ما نزلت فيها بعيداً عن الفسطاط، في أراضي الصعيد الأدنى والأوسط^(٣٨) وعاشت جنباً إلى جنب مع المصريين، وهكذا نسمع لأول مرة عن استقرار عربي في مراكز ثابتة في الدلتا والصعيد شارك في الحياة المدنية المصرية خلال القرن الثاني الهجري^(٣٩)، وهكذا أخذت الهجرات العدنانية (عرب الشمال) والقحطانية (عرب الجنوب) تتوالى على دلتا صعيد مصر منذ ذلك الوقت.

على أن هذا التوافد العربي على أرياف مصر يعد إرهاصاً لبداية الإنداجم الحضاري بين العرب والمصريين؛ وعلاقة مميزة للاختلاط التدريجي بينهما، وليس اختلاطاً بالمعنى الواسع الذي يكشف عن المضمون الحضاري لمعنى العروبة، ذلك أن استقرار أفراد القبائل العربية - آنذاك - لم يعد سوى محاولات لتبادل ثقافي مع المصريين؛ واختلاط محدود الأثر لم يسفر عن انقسام العنصرين؛ حيث كان العرب يستطيعون حياتهم المدنية اعتناماً على العطاء الممنوح لهم من قبل الدولة منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب^(٤٠)، وفي ظل شروط الفاتح القديمة؛ التي ظلت قائمة ومعمول بها خلال القرن الثاني الهجري، وأهمها ما اشترطه هذا القائد بقيام القبطي بضيافة كل من ينزل عليه من العرب ثلاثة أيام، وكلها أمور تزيد من احتكاك العربي بالقبطي في مناخ صحي هادئ يكفل لهما حرية التعايش؛ والتواافق.

وعلى جانب آخر فإن الاستقرار العربي بأرياف البلاد المصرية في القرن الثاني الهجري لم ينتج عنه مساهمات عربية في صنع بناء منظومة حضارية؛ فلم نسمع عن الصانع أو الحرفي أو المزارع العربي الذي ما زال يمارس عزوفاً وانعزالاً عن الصنائع؛ مفضلاً رغبته في الابتعاد عن

٦- ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، صفحة ١٤٣ .

٧- عبد المجيد عابدين : دراسة لتاريخ العرب في وادي النيل ؛ مع تحقيق لكتاب المقريزي : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الإعراب ؛ عالم الكتب ، القاهرة ١٩٦١ ، الجزء الأول ، صفحة ١٠١ .

٨- المقريزي : الخطط ، ج ١ ، صفحة ١٠٥ .

٩- حول الاستقرار العربي بأرياف مصر في القرن الثاني الهجري؛ أنظر الكندي: الولاية صفحة ٣٩ .

١٠- المقريзи : الخطط ، ج ١ ، صفحة ٢١١ .

الجوانب المهنية التي تكسبه حقاً في تأسيس حياة تكفل له السعادة والتحضر بدلاً من استخدامه للعطاء بما يحقق له العيش الآمن فقط.

وفي ظل التعايش العربي القبطي أبان القرن الثاني الهجري كان القبطي هو الصانع والحرفي والزارع الوحيد في مصر، دون أن يتشرب منه العربي الوافد أسرار حرفه وصنعته؛ لأسباب تعود إلى انغلاقه على نفسه داخل المراكز الريفية الجديدة؛ لأسباب اتكالية جعلته يركن إلى عطائه الذي يكفيه ويكتفى أرزاق عياله تبعاً لـما قرر الخليفة عمر بن الخطاب لتنظيم حياة العرب بمقتضى هذا العطاء؛ وفي غياب انصهار العربي في المجتمع القبطي مما حال دون إقامته على أن يتعلم ويتدرج على الفلاحة والزراعة والصناعة التي مهر فيها المصريون.

على أن عزوف العرب عن ممارسة الصنائع وعدم انصهارهم في الحياة القبطية بكل جوانبها لا يلغى إطلاقاً الأثر الثقافي الذي أفرزته تلك المرحلة المبكرة، ومما لا شك فيه أن التشابك اللغوي مع اللغات واللهجات المصرية ذات الأثر البعيد والمتواصل عبر قرون عديدة مضت على استقرار العرب كانت من وراء التمهيد لتبادل ثقافي بين العنصرين في ميدان اللغة، والعادات، والتقاليد؛ والملبس، والمأكل، وكلها أمور لم تتأت إلا في إطار آثار الاختلاط التدريجي وليس الواسع في حياة هذين العنصرين؛ بينما لم يظهر ذلك بوضوح وجلاء على الآثار والنقوش الإسلامية على الفنون والعمائر؛ التي تعبّر عن مظاهر الحياة المادية في حياة الشعوب، والمعروف أن الذي كان يباشرها في مصر آنذاك هم القبط فقط؛ وبالتالي فإن مظاهر الحياة الاجتماعية المبكرة خلال القرون الهجرية الأولى لا تعكس سوى الأثر القبطي بما يحمل من مؤثرات غنية قديمة حافظ عليها القبط في صنائعهم؛ وهي مؤثرات قبطية وبيزنطية وساسانية.

على أن قدوم طائفة من العلماء والفقهاء العرب على نواحي مصر منذ القرن الثاني الهجري لتعليم الناس أصول الدين وفهم العقيدة ومن رغب في ذلك من أهالي البلاد الأصليين أو العرب الذين تواجدوا عليهم كان يدعم - بطبيعة الحال - الجانب الثقافي والعقدي مما كان له دوره الملموس في تمهيد السبيل لانتشار الإسلام بين القبط في مصر.

وصفوة القول فان القرنيين الهجريين الأول والثاني شهدا في مصر اختلاطاً تدريجياً بين العرب والمصريين بما يعبر عن علامات ظهورعروبة فيها، بينما لم يعكس إندماجاً بينهما بما يسمح ببناء مضمونها الحضاري للدلالة على ميلادها؛ وهو الميلاد الذي يبرهن على ظهور شعب جديد من المولدين يجمع في أعرافه بين الدماء العربية والمصرية ذات المؤثرات المتلاقة " بين العنصرين " وبما يكشف عن مولد حضارة جديدة

فى مصر ، تحمل شخصية عروبية فى تكوينها الأمر الذى نحاول رصده فى الصفحات اللاحقة .

ظهور مولد العروبة في مصر الإسلامية

طرأ على حياة العرب في مصر ابتداء من النصف الأول من القرن الثالث الهجري تطور هام ترك أثراً نوعياً في تاريخ هجرة القبائل العربية ، فقد حرم الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) العرب من العطاء^(٤١) ، في وقت فرض عليهم فيه الخراج^(٤٢) ، واعتمد في إدارة شؤون دولته على الترك^(٤٣) ، وفقدت القبائل العربية إمتيازاتها في مصر العسكرية والإدارية والمالية^(٤٤) ؛ ولم يعد للعرب بمقتضى هذه الظروف الجديدة ما يكفل له رزقه وأرزاق عياله ، وليس لديه ما يعوضه عن فقدان عطائه من صنعة أو حرفة تمكنه ليفي ويعيش ، ولم ير أمامه إزاء ما ألم به من ظروف سوى أن يختلط اختلاطاً فعلياً بالمصريين ؛ في محاولة لاستطابة الحياة المدنية بحثاً عن حياة أفضل ؛ ومنذ ذلك الوقت شهدت الأراضي المصرية هجرات عربية بمعناها الواسع ؛ وسرعان ما أخذت هذه العناصر المهاجرة إلى الأرياف المصرية أن تعمل في الزراعة والتجارة وسائر الأعمال التي تكفل لهم أسباب العيش ، واختلطت دماءهم بدماء المصريين ، وما لبثت ألقابهم العربية أن تغيرت ، وانتسبوا إلى أوطانهم الجديدة ، فانتسب آل سلامه بن عبد الملك إلى طحا^(٤٥) ولقبوا بالطحاوی^(٤٦) مما ينهض كشفاً على انصهار العربي في الحياة المصرية واختلاط دمائه بالدماء المصرية ؛ وببداية ظهور عنصر جديد من المولدين في مصر الإسلامية ؛ وليس أدل على ذلك من استقرار العرب في بلدان وقرى بعيدة عن الفسطاط العاصمة ؛ في الوجهين البحري والقبلي ؛ واتخذت هذه المراكز الثابتة التي شهدت هذا الاستقرار أسماء عربية تدل على ساكنيها من العرب ؛ وهكذا في بعضها يسبقها لفظ بنى أحمد ، وبني على ، وبني عدى في بلدان الصعيد الأوسط .

١- المقريزي : الخطط ، ج ١ ، صفحة ٢١١ .

٢- حسن أحمد محمود : حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني ؛ القاهرة ، النهضة العربية ، ١٩٦٠ م ، صفحة ٣٣ .

٣- ابن خلدون : المقدمة ، صفحة ١٥٦ .

٤- Mocmechael : A History of Arabs in the Sudan (Cambridge , 1922) VoI 1 , P 160 .
٤- الكندى : الولاية ؛ صفحة ١٦٨ - ١٧١ ، انظر .

٦- السمعانى (ت ٥٦٢ هـ) أبي سعيد عبد الكريم بن محمد ؛ الأنساب صورة من مخطوط بالأوفسوت ، عمل مكتبة المثلثى - دار الكتب المصرية ، - تاريخ - تحت رقم ٣٤٨٦١ ، ورقة ٢٠٧ .

على أن هناك تطويراً يخص حياة العرب في مصر خلال القرن الثالث الهجري ، فقد حملت - إذ ذاك - أسماء الكثير من الخطط أسماء أفراد القبائل بينما كانت تحمل نفس هذه الخطط لدى أصحابها من أبناء القيسية واليمنية خلال القرن الثاني أسماء القبائل تعبرها عن الانتماء الاجتماعي للقبيلة^(٤٧) ؛ وهو الأمر الذي يؤكد على أن الإنسان العربي في مصر في القرن الثالث الهجري أخذ يعبر عن نفسه كمواطن يعيش في مصر يأخذ منها ويعطيها مؤثرات عربية لا تلغى - بطبيعة الحال - فكرة الانتماء لقبيلاته تكريساً لفكرة العروبة ومضمونها الحضاري .

وشهد القرن الثالث الهجري وفي أنحاء كثيرة من قرى مصر تمركز عربي في الخطط ، والحارات ، فاختلطت قريش على سبيل المثال - لا الحصر - بالجهة الغربية بالبهنسا أحدى نواحي الصعيد الأوسط ، كما اتخذت لنفسها حارة سميت بحارة الأشراف^(٤٨) .

بدأ العربي في مصر خلال القرن الثالث الهجري إزاء شعوره بالخطر من تزايد العنصر التركي يظهر تماسكه بالأرض المصرية ؛ التي وفر لها قوة عربية تعينه على أن ينفرد بمكاسب هذه الأرض ، ولا يترك للترك فرصة للفوز بها في أريافها وقرابها ، أو يغتنم منها ما يشاء ؛ فوجد في اتخاذ الأحلاف أساساً لإظهار قوته وقدرته على مواجهة الترك الذين أخذوا يزحفون على هذه البلاد منذ عهد الخليفة المعتصم لحرمانه من مكانته في مصر^(٤٩) ؛ وكان أن وجد العرب في القبط ما يعينهم على هذه المواجهة لكونهم خصوصاً للترك ، الأمر الذي حق لهم مزيداً من الاختلاط بالمصريين ؛ وفي إطار من التحليل الأنثربولوجي الذي يعول في بعض اتجاهاته على الجانب النفسي للإنسان ما يشير إلى أسباب هذا التقارب ، فالعرب في نظر المنوفستيين الأقباط أصحاب تاريخ مشرف أنقذوا به بلادهم وأفسسوا بأموالهم ودينه من المستعمر البيزنطي ' بينما بات الترك في رأيهما غزاة لا يختلفوا كثيراً عن البيزنطيين ؛ الأمر الذي يكشف الكثير من دواعي سرعة ذلك الاختلاط بين الدماء العربية والمصرية ، ويكشف بنفس القدر محودية الثورات القبطية وقتلها وما انطوت عليه من ضعف وانعدامية الأثر إزاء

^{٤٧} - رضوان النجاتي : القبائل العربية في القرنين الثالث والرابع الهجريين رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٥ م ، صفحة ١٦٧ - ١٦٨ .

^{٤٨} - الواقدى : فتوح الشام : ط دار الجبل ، بيروت ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٠٨ .

^{٤٩} - عبد المجيد عابدين : نفسه ، صفحة ١١٩ - ١١٨ .

حكم العرب في مصر عصر الولاية^(٥٠) الذين اشتبوا - أحياناً - في فرض سياسات مالية تعسفية تجاه هؤلاء المصريين .

وعلى جانب آخر لم يستبد المهاجرون العرب في مراكزهم الثابتة بقري مصر وأريافها ، فلم يغيروا على أراضي القبط أو منازلهم حتى عاشوا دون أن يروع لهم سرب ؛ مما وفر ظروفاً هادئة عاش في ظلها العنصران طيلة القرن الثالث الهجري ، ساعد ذلك كلّه على قدوم نفر من المصريين على تعلم اللغة العربية في صور تمهدية ليحدث التطور النهائي للوفاء بظهور العربية في القرن الرابع الهجري ، فرى ساويرس أسقف الأشمونيين يؤرخ للبطاركة في أواخر هذا القرن باللغة العربية ، ويظهر مدى التحام العنصرين العربي والقبطى بالمدى الواسع لانتشار اللغة العربية في قول ساويرس نفسه (فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوان ، سألت نقل ما وجدناه منها بالقلم المصرى واليونانى إلى القلم العربى الذى هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى)^(٥١) .

وواكب ذلك التطور العربي بتأثيراته في الدلتا والصعيد ظهور آخر في أطراف وحواف أقصى الصعيد منذ منتصف القرن الثالث الهجرى حيث قصدت أفراد القبائل العربية أرض الجاجة بالصحراء الشرقية ، وهكذا عاش العرب في أواخر عهد الخليفة العباسى المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) ، بجوار الجاجة مطمئنين حيث اختلطوا بهم ، بعد أن هاجروا للاستقرار في صورة جماعات كثيرة إلى أرض المعادن .

إزدادت هجرة العرب إلى العلاقي بتأثير فقدانهم للعطاء^(٥٢) وضياع نفوذهم القديم منذ القرن الثالث الهجرى ، ولأسباب مالية ضائقهم من حكم الترك خرجت أفراد كثيرة من عرب ربيعة وجهينة للبحث عن حياة أفضل ، ولتأديب الجاجة تحت إمرة أبي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري إلى أرض المعادن في العلاقي حيث اتخذوا مراكز هناك بحثاً عن الثروة ، وساهموا في بدء مرحلة جديدة من مراحل انتشار الثقافة العربية إلى ما وراء حدود مصر الجنوبية^(٥٣) ؛ ليجمعوا بين الكشف عن مناطق جديدة لمعدن الذهب في أرض الجاجة ؛ والبحث عن مهاجر جديدة يضيفون بها مأثر

٥٠- عرفت الفترة الزمنية بين دخول العرب مصر وحكمهم لها منذ سنة ٢٠ هـ وإلى قيام دولة الطولونيين سنة ٢٥٤ هـ بعصر الولاية .

٥١- ساويرس بن المقعع : سير الآباء البطاركة ؛ المجلد الأول ، المقدمة .

٥٢- المقريزى : الخطط ، الجزء الأول ، صفحة ١٩٦ .

٥٣- مصطفى مسعد : نفسه ، صفحة ١٢٤ ، ١٢٥ .

لحضارة عربية جديدة يحققون بها عرويthem الفعلية ذات المضمون الحضاري في أقصى شرق الصعيد .

وكان أن تمنع القبط في مصر بحرية العقيدة ، وظلوا على مسيحيتهم وحراسا لما كانوا يملكونه من الأديرة والكنائس المنتشرة في الصعيد والدلتا، وفي ظل هذه السياسة الهاينة التي سلكها العرب المهاجرون تجاه المصريين دونما استبداد منهم أو تعدى على ممتلكاتهم ؛ نرى ظواهر اندماج العنصرين في صنع حياة مستقرة بهذه النواحي ، وتشير البرديات العربية التي ترجع إلى القرن الثالث الهجري إلى مشاركات عربية قبطية في خلق حياة آمنة مكنت كلا منهما من غرث فكرة المواطنة الحقيقة وانتماء افرادها إلى الأرض المصرية ؛ فهذا عقد تم إبرامه في القرن الثالث الهجري بين موسى بن عفان المسلم وأحد النصارى إشتري بموجبه الأول ثلث منزل من الثاني^(٤) برضاء وقبول ، وفي دعوة لارتباط العربي بأرضه الجديدة التي نزح إليها ، وفي وثيقة أخرى نرى أحد الأقباط وهو يشهد سنة ٢٤١ هـ على إيصال خاص بدين مؤدى لأحد العرب الذين نزحوا إلى الصعيد الأوسط بمقدار عشرين دينارا^(٥) .

على أن الحكومة الطولونية حرصت خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري على إشاعة نوع من الوئام والتوافق بين العرب والقبط حتى يسود البلاد الحياة المستقرة ؛ وكان أن بدأ ذلك العهد أحمد بن طولون نفسه الذي لم يتوان في إبعاد ابن المديبر عن خراج مصر بعد أن أحاس بخطورة إغفاله للأهليين بالضرائب ، داعيا إلى اتباع سياسة هادئة تجاه كليهما مما كان سببا في تهيئتهما نحو بناء أساس لقاعدة يعيش في ظلها المصريون^(٦) بإنتماء للأرض التي وسعتهم ؛ وغيره عليها بدليل أنه منذ نهاية القرن الثالث الهجري ؛ وإلى نهاية العصور الوسطى كانت الحياة بين هذين العنصرين على أصدق ما يكون الوفاق إلا فيما ندر من سنين قاسى فيها الأقباط من شدائد الحياة المالية .

٤- جروهمان : أوراق البردي العربية ، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، دار الكتب المصرية ، ج ١ ، صفحة ٣١١ .

٥- جروهمان : " أوراق البردي العربية " ترجمة حسن إبراهيم حسن ، دار الكتب المصرية ، ج ٢ ، صفحة ١٤٤ ، طراز رقم ٣٧٤ .

٦- راجع البلوي (توفي في النصف الأول من ق ٤ هـ) : " سيرة أحمد بن طولون " ؛ تحقيق محمد كردي على ، دمشق ، ١٩٣٩ - ١٣٥٨ م ، حول قيام أحمد بن طولون بارتياح أديرة وكنائس القبط ؛ وسياسته الهاينة تجاه القبط ؛ صفحة ١١٨ .

على أن ذلك لا يعني بأن الطولونيين هم أصحاب الفضل في وضع قاعدة للتوافق العربي القبطى داخل أرياف مصر وبلدانها ، بقدر ما كانت طبيعة الأشياء هي التي تدفع الحاكم - أى حاكم - كى يأخذ بأسباب الاستقرار حرضا على ملكه ودعوة لاستمراره فضلا عن الجغرافيا ونيلها وما لها من دور فى استيعاب كل ما من شأنه أن يرتبط بالأرض المصرية أو يرغب فى العيش على أرضها ، ويمكن القول بأن المجتمع العربى اتخذ وهو فى دور التكوين صورا وأشكالا متعددة نتيجة للاتصال التدريجى والاختلاط المتزايد بين العرب والمصريين .

والامر الجدير بالاعتبار أن العرب فى مصر تعلموا من الأقباط منذ عهد الخليفة المعتصم العباسى فلاحة الأرض ورعاية الزرع ؛ وأمر الصنائع ؛ وفنونها والتى تشهد عليها النقوش الكتابية الكوفية على القطع النسيجية والخشبية والخزفية ؛ وأخذت هذه الفنون تظهر فى شخصيتها الإسلامية الجديدة ؛ فلا مضاهاة فيها ، فى ظل المفاضلة بإستخدام الزخارف الهندسية ؛ والنباتية والكتابية ، بعد أن كانت قبل ذلك التاريخ لا تخرج فى إظهار الأصول الفنية بأيدي قبطية ؛ وتأثيرات مسيحية وبيزنطية وساسانية وفوق ذلك كله فان شيوخ اللغة العربية فى قرى وريف مصر ، وما انطوت عليه من تطورات حضارية والتى كان يدعمها منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجرى توافد الجموع العربية التى بدت تعمل فى كل نواحي مصر ؛ فوجدناها تبحث عن المعادن فى أقصى الجنوب ؛ وتشهد على عقود البيع والشراء فى وسط الصعيد ، وتستقر بعادات عربية مختلطة بأخرى قبطية بكل مؤثراتها وأصولها فى الدلتا والوجه القبلى مما مكن للغة العربية أن تسود بفعل هذا التشابك اللغوى عبر قرون قديمة مضت .

وصفوة القول فإنعروبة فى مصر قد بدت ارهاصاتها فى القرنين الهجريين الأول والثانى ، وتقررت قواعدها فى القرن الثالث الهجرى معنئه عن مولدها فى مصر الإسلامية .

المحتوى

" مولد العروبة فى مصر الإسلامية "

أولا : تمهيد "عروبة" ، حدود المصطلح .

ثانيا : العرب والعربية فى مصر قبل الإسلام .

ثالثا : إرهاصات ظهور العروبة فى مصر فى القرنين الهجريين الأول والثانى .

ثالثا : ظهور مولد العروبة فى مصر .